خمس مشكلات حقيقية
أمام الفلسفة الإسلامية فى العصر الحاضر

أ . د حامد طاهر*

تقديم :

لا توجد فلسفة بدون مشكلات .

وإذا كانت الفلسفة الإسلامية قد نهضت فى الماضى لتواجه عددًا من المشكلات الدينية والفكرية التى برزت فى المجتمع الإسلامى القديم ، فإنها الآن مدعوّة إلى أن تقوم بدورها الذى يُنتظر منها فى مواجهة مشكلات المجتمع الإسلامى المعاصر . ومن الطبيعى أن تتطلب مواجهة المشكلات فى البداية تحديدًا واعيًا لنشأتها ، وتطورها ، وحجمها ، والآثار الناجمة عنها ، ثم يأتى بعد ذلك كله البحث عن حلول مناسبة لها .

وقد آن الآوان أن تنهض الفلسفة الإسلامية بهذا الدور ، وخاصة بعد أن فشلت الفلسفات الوافدة من الغرب أو الشرق على السواء فى معالجة مشكلات المجتمع الإسلامى . ولا شك فى أن غياب دور الفلسفة الإسلامية لفترة طويلة قد أفسح المجال لتلك الفلسفات فى أن تملأ الساحة العربية والإسلامية ، وأن يتقدّم دعاتها ليقولوا لنا : هذا هو الحل . وعند التطبيق : لم يقدم هذا الحل أو ذاك ما كنا نتوقعه من قضاء على المشكلات ، بل على العكس ، زادت الأمور تعقيدا ، والفكر بلبلة ، وعاد المجتمع الإسلامى من جديد يفتش عن حلول أخرى لمشكلاته الحقيقية ...

وتجدر الإشارة إلى أن التيار الإسلامى التقليدى الذى كان له فضل الوقوف فى وجه الفلسفات الوافدة ، وبيان عيوبها ، لم يستطع أن يقدّم حتى الآن تصورًا عصريًا مقنعا لحل

(*) استاذ الفلسفة الإسلامية المساعد بكلية دار العلوم . جامعة القاهرة .

حاسم يمكنه أن يقضى على مشكلات المجتمع الإسلامى . وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن دعاته لم يتسلحوا بشمول الرؤية ، وواقعية الملاحظة لما يجرى فى عالم اليوم ، وهو عالم سريع الحركة ، مختلف السمات عن عالم الأمس . لذلك فإن حلوله ينبغى أن تكون من نوع جديد ، يتطابق مع جدّه مشكلاته ، وشدة تعقيدها .

إن مشكلات المجتمع الإسلامى قد أصبحت بحاجة إلى مفكرين مسلمين على مستوى الفلاسفة ، وهؤلاء بإمكانهم أن ينفذوا بنظرتهم العميقة والشاملة إلى جوهر المشكلة ، وأن يتتبعوا بوعى نقاط نشأتها ، وخطوط تطورها ، فإن بعض المشكلات قد تختفى أحيانًا فى الظاهر ، ولكنها تظل كامنة فى باطن الأرض ، تعمل عملها ، وما تلبث أن تتكشف عن داء خبيث . هؤلاء المفكرون المسلمون – أو الفلاسفة هم الذين بإمكانهم أن ينظروا لمشكلات المجتمع الإسلامى فى إطار الواقع العالمى الذى يحيط بمجتمعهم ، ويتغلغل فى كيانه ، ويسْرى – كما هو واضح – فى شئون حياته اليومية . كذلك فإنهم هم الذين يستطيعون أن يرتفعوا عن جزئيات المشكلة ، أو تفصيلاتها الفرعية ، ويحددوا بدقة منبعها الأصلى ، وبذلك فإنهم لا ينخدعون بالمظهر العابر عن الجوهر المستمر .

لكن ينبغى ألا ننتظر من هؤلاء المفكرين – أو الفلاسفة – مفاتيح سحرية يحلون بها المغلقات فحسبهم أن يحددوا أصل الداء ، ويشخّصوا أعراضه ، ويبيّنوا مخاطره على المدى القريب والبعيد . فإذا تقدم أحدهم بعد ذلك بحل ، استحق هذا الحل أن يكون موضعًا للتجربة . والتجربة وحدها هى التى تبيّن كفاءة هذا الحل من تهافته . وهنا يأتى دور العلماء المتخصصين مرة أخرى لكى يقول كل منهم رأيه فى الجانب الذى يتعلق به من هذا الحل : فإذا اثبتت التجربة صحته من جميع الجوانب قبلناه على أنه مفتاح المشكلة الحقيقى ، وأصبح لزامًا علينا أن نأخذ به . وإذا لم تثبت التجربة صحته ، طرحناه ، أو أعدناه للفيلسوف مرة ثانية لكى يعيد تقييم المشكلة من جديد .

بهذا المنهج المحدد – الذى يستفيد من منجزات البحث التجريبى – تستطيع الفلسفة الإسلامية أن تؤدى دورها الجديد فى المجتمع الإسلامى ، فتجمع بين شمول الرؤية وواقعية التجربة . وذلك دون أن تفقد جذورها الممتدة فى أعماق الإسلام . لأن هذه الفلسفة كانت ، ومازالت ، فلسفة دينية ، ومعنى ذلك أنها فلسفة مؤمنة ، وموحّدة ، ملتزمة ومفسّرة . والمطلوب منها الآن أن تتقدم لتأخذ مكانها المناسب الذى ظل فارغًا لوقت طويل[1] .

---

(١) نحيل هنا إلى مقالنا « الفلسفة الإسلامية فى العصر الحديث » . دراسات عربية واسلامية الجزء السادس ١٩٨٧ .

وتقوم فكرة هذا البحث على تحديد عدد من المشكلات التى نراها حقيقية ومعاصرة ، ونحن نضعها فى ترتيب يُبيّن أهميتها ، ونعرضها مع بعض الملاحظات على أمل أن تجد من الأساتذة والزملاء المهتمين بالفلسفة الإسلامية مزيدًا من الفحص والتحليل . والمشكلات التى اخترناها هى :

١ - مشكلة الفهم المنقوص للإسلام .

٢ - مشكلة التعصب المغلق .

٣ - مشكلة التخلّف الحضارى .

٤ - مشكلة التبعية الثقافية .

٥ - مشكلة الأصالة والمعاصرة .

أولًا : مشكلة الفهم المنقوص للإسلام :

ليست هذه المشكلة جديدة على المسلمين ، ولكنها تضرب بجذورها فى تاريخهم الطويل ، وتبدأ مع بدايات التاريخ الإسلامى نفسه . وقد كانت فى مراحل كثيرة وراء معظم المشكلات الأخرى التى فرّقت المسلمين ، وشتّت جهودهم . ومن الملاحظ أنها تعود فى عصرنا الحاضر لتحتل - مرة أخرى - مكان الصدارة ، وتفرض أهميتها لكى تكون لها أولوية البحث والمعالجة .

إن الفهم المنقوص للإسلام له أسبابه ومظاهره . ولكى يمكننا تحديده ينبغى علينا أولًا أن نعرض للفهم المتكامل للإسلام . ولن نحتاج فى هذا الصدد إلى تفصيلات كثيرة فهى قريبة ومتوافره . وإنما حسبنا أن نقول : إن الإسلام دين تشمل مبادئه وتعاليمه حياة الفرد والجماعة ، ويتناسب مع تطلعات الإنسان الروحية ، وحياته العملية . وهو يقوم على أربع مقومات أساسية :

أ - العقيدة : وتتضمن توحيد الله تعالى ، والإيمان بالرسل السابقين والاعتقاد فى البعث والجزاء الأخروى .

ب- العبادة : وتشمل الشعائر الأربع الأساسية وهى الصلاة والصوم والزكاة والحج .

جـ- الأخلاق : وهى انعكاس كل من العقيدة والعبادة على السلوك الإنسانى ، بعد تنقية دوافعه ، وتنظيم اتجاهاته .

د - التشريع : وهو مجموع القوانين التى تنظم معاملات الفرد والجماعة فى حالتى السلم

والحرب بالإضافة إلى عدد من عقوبات الجرائم (الحدود والتعزيرات) .

والمتأمل فى هذه المقومات يلاحظ التكامل الواضح بينها . فهى تتجه لتنسيق حياة الفرد المادية مع تطلعاته الروحية ، كما أنها تحقق التوازن المطلوب بين نزعته الفردية وحاجاته الاجتماعية ، فضلا عن أنها قادرة على قيادة المجتمع كله قيادة حكيمة معتدلة .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه المقومات لا تكونّ نسقًا فكريًا وتجريديًا ، وإنما هى نظام من المبادىء والتعاليم قابل للتحقق العملى فى واقع الناس . والدليل على ذلك أنها قد تمثلت فى سيرة جيل كامل ، هو ما نطلق عليه جيل « الصدر الأول » الذى تلقى أفراده من الرسول ﷺ أمانة الدعوة ، فآمنوا بها ، وحفظوها ، ثم حملوها إلى سائر الناس فى انحاء العالم ، حتى تمكنت واستقرت[٢] .

ومما يلفت النظر أننا نشهد فى حياة هذا الجيل : بساطة تعاليم الإسلام مع قوة التمسك بها ، وشمول الرؤية إليها مع عدم اغفال تفصيلاتها . فلم يحدث أن ركز المسلمون فى تلك الفترة على أحد مقومات الإسلام – التى سبق ذكرها – فى الوقت الذى أهملوا فيه غيره من المقومات الأخرى بل كان المسلم مسلمًا بعقيدته وعبادته وأخلاقه واحترامه لضوابط التشريع . كذلك فإن مراعاة التفاصيل الدقيقة التى كان يتمسك بها الصحابة رضى الله عنهم تمسكا حرفيا اتباعًا لسنة الرسول ﷺ – لم تمنعهم من فهم الروح العامة للشريعة . وهذا ما نجده واضحا تماما الوضوح لدى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ، الذى تميز بالجمع الأصيل بين التمسك بتفاصيل الشريعة ، والفهم الواسع الأفق لجوهرها وروحها[٣] .

لكن الفهم المنقوص للإسلام إنما بدأ بعد مرحلة « الصدر الأول » ، وذلك عندما راح بعض المسلمين يستخدمون منهج التأويل فى فهم نصوص القرآن الكريم ، وراح بعضهم الآخر يعتمدون على مصادر أخرى ، غير متفق عليها تمامًا (وخاصة فى مجال السنة النبوية) ، وذهب فريق ثالث إلى شطر الإسلام شطرين : أحدهما ظاهر للعامة ، والآخر باطن من نصيب الخاصة وحدهم ![٤] ومن المعروف أن هذه الانحرافات الأولى فى فهم الإسلام قد أخذت تتأصّل فى المجتمعات الإسلامية على أيدى طوائف ذات اتجاهات متباينة ، بعضها سياسى ، وبعضها عِرْقى ، وبعضها دينى متعصب ، ومالبثت أن تمخّضت عن عدد هائل من الفرق والمذاهب والأحزاب ، وراح كل حزب ينتصر لنفسه ، ويلصق بالأحزاب الأخرى تهمة

---

(٢) يمكن الرجوع فى هذا الصدد إلى كتاب « حياة الصحابة » فى ثلاثة أجزاء ، لمحمد يوسف الكاندهلوى – ط دار التراث ، القاهرة .

(٣) انظر : عمر بن الخطاب ومنهجه فى التشريع للدكتور محمد بلتاجى . مكتبة الشباب ١٩٧٣ .

(٤) نشير بهذه المناهج إلى أسلوب كل من الشيعة ، والفقهاء ، والصوفية على الترتيب الوارد فى متن البحث .

الكفر أو الفسوق أو الخروج عن الإسلام[٥] .

ومع ذلك فإن حال المسلمين لم يكن كله بهذا السوء : فقد تجرّد بعض العلماء المحققين لبيان الفساد الذى طرأ على تصور الإسلام تصورًا صحيحا ، وظهرت مخاطره فى جسد الأمة الإسلامية . وهكذا لا نفتقد وسط ضجيج الآراء الزائفة صوت الحق الأصيل (الحسن البصرى - ابن حنبل) غير أن هذا الصوت لم يكن له - وسط تلاحق الأحداث ، وتعقّد تركيب المجتمع الجديد - سوى صدى ضئيل .

لقد تمزق التصور الإسلامى المتكامل لدى المسلمين ، حين راحت كل طائفة تدافع بعنف عن جانب واحد - أو أكثر - من هذا التصور ، معتقدة أنها وحدها على الحق ، وأن غيرها من الطوائف الأخرى فى الضلال المبين : ظهرت الأحزاب السياسية - الدينية (الخوارج والشيعة وأهل السنة) والفرق الدينية - الكلامية (المعتزلة والأشاعرة والماتريدية) بل إن الزهد فى متع الحياة الدنيوية قد تبلور فى طائفة أصبح لها نفوذها المتغلغل فى طبقات المجتمع ، وهى (الصوفية) التى وقفت على طرف نقيض ضد (الفقهاء ، وأهل الحديث) .

لا يمكن أن نجد لدى أى طائفة أو فرقة من هذه الطوائف والفرق ذلك الفهم المتكامل الذى سبقت الإشارة إليه ، والذى تحقق كما قلنا فى جيل « الصدر الأول » . وكل ما يمكن أن نُعثر عليه إما فهم خاطىء ، أو فهم جزئى .. ومما زاد فى تدهور الحال أن الأجيال اللاحقة تلقّت تركة أجدادهم المنقسمين على أنفسهم بقدر كبير من التوقير والإجلال .. ولم تنظر إلى آرائهم المتباينة على أنها أنحاء خاصة فى التفكير والفهم ، يمكن أن يتم فحصها ونقدها ، أو يجرى استكمالها ، وانما أخذتها فى الغالب على أنها « مقدسات مباركة » ينبغى حيازتها ، والقيام عليها دون نقد أو تمحيص[٦] .

وقد نتجت عن ظاهرة الفهم المنقوص للإسلام بعض النتائج التى كان لها أثرها الخطير على سيْر الحركة العلمية لدى المسلمين . فقد راح كل من علماء الدين (الفقه ، وعلم الكلام ، والتصوف) يمجدون علمهم ، ويرفعون من قدره إلى حد ازدراء العلوم التجريبية التى تتناول واقع الحياة المادية . وكانت محصّلة ذلك أن ازدهرت العلوم الدينية واللغوية على حساب العلوم التجريبية ، ولعل محاولة الفارابى (ت ٣٣٩ هـ) فى كتابه « إحصاء العلوم » كانت تنبيهًا على خطورة هذه الظاهرة ، ودعوة إلى ضرورة إحداث التوازن المطلوب بين

(٥) نحيل هنا إلى كتاب فلهوزن : الخوارج والشيعة ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، وأيضا كتاب فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بن أمية ، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن ، ومحمد زكى ابراهيم . مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥ .

(٦) انظر فى هذا الصدد للدكتور زكى نجيب محمود : تجديد الفكر العربى دار الشروق ١٩٧١ ، والمعقول واللامعقول فى تراثنا الفكرى . دار الشروق ١٩٧٨ .

جناحى العلم : النظرى والتجريبى . لكن اشارته مع الأسف ضاعت فى الزحام[٧] .

وقد ساعد غياب النظرة النقدية لتراث الأجداد على استقرار « مسلمات » الفهم المنقوص للإسلام خالية من أى عيوب . والدليل على ذلك أن عدد المفكرين المسلمين الذين برزت عندهم روح نقدية لآراء السابقين قليل جدًا ، فضلًا عن أن حياتهم لم تَخْلُ من متاعب كان سببها الأساسّى ظهور تلك الروح النقدية فى أعمالهم (انظر على سبيل المثال : ابن حزم ، وابن رشد ، وابن تيمية ، وابن خلدون) .

إن التأريخ لظاهرة الفهم المنقوص للإسلام يستحق – فى رأينا – بحثًا مستقلًا . ويكفى الإشارة هنا إلى أن هذه الظاهرة قد استمرت عبر عصور طويلة ، وها هى تبرز فى عصرنا الحاضر بكل حدة . وحسبنا أن نقوم بعملية فحص تحليلى لعقلية المسلم المعاصر ، وسوف نكتشف فيها تراكمات العصور السابقة ، وما خلّفته من عناصر بعضها صوفى ، وبعضها شيعى ، وبعضها عِرْقى ، وبعضها نابع من البيئة المحلية بخرافاتها الشعبية ، وأساطيرها القديمة . وهذا بالطبع مضاف إلى الجهل بتكامل مقومات الإسلام الرئيسية[٨] .

وهنا ينتظر الفلسفة الإسلامية دور كبير ، فى توضيح المفاهيم ، وتحليل وجوه سوء الفهم ، وتقديم التصور المتكامل للمسلمين .

ثانيا : مشكلة التعصب المغلق :

لا يكاد التاريخ البشرى ينفصل عن ظاهرة التعصب المغلق ، التى صحبت أو سبقت أحداثه الكبرى ، حتى ليمكن القول إن التعصب للأراء ، والمذاهب ، والأجناس يُعتبر أحد العوامل الرئيسية فى اشتعال الحروب ، وبالتالى فى تكوين تاريخ الإنسان على سطح الأرض[٩] .

وليس التعصب لمبدأ سوى المبالغة المتطرفة فى الإيمان به . لكن الفرق كبير بين التعصب والإيمان . فمن المعروف أن الأديان كلها تدعو الناس إلى الإيمان ، وتنفرهم من التعصب . والإسلام نفسه قد اهتم بمسألة الإيمان اهتمامًا بالغًا . لكنه يهدف إلى تكوين إيمان لا يتحول فى نفوس الناس إلى تعصب أعمى ، أو اتباع مذموم . الإيمان فى الإسلام اعتقاد واع متبصر .

---

(٧) موضوع تصنيف العلوم قام بدور هام فى تنظيم المعارف والفنون لدى الأوربيين فى مطلع عصر النهضة ، وكان وراء وضع القواميس ودوائر المعارف التى ساعدت على نشر المعرفة وتحديد مساراتها .

(٨) هذا فى رأينا موضوع بحث ميدانى ، يمكن أن تأتى حصيلة استبياناته بنتائج على درجة عالية من الأهمية ، وخاصة بالنسبة للمهتمين بالإصلاح ، والعاملين فى مجال الدعوة الإسلامية .

(٩) انظر : P-H. Simon, L'Esprit et l'Histoire p. 23. Paris 1969.

وما أكثير الآيات القرآنية التى تشير إلى أن : فى ذلك آيات للمؤمنين ، أى علامات تهديهم وتنير عقولهم . وفى الوقت الذى يدعم الإسلام إيمان الإنسان بوسائل القوة المختلفة عن طريق (التفكير ، والتأمل ، والاعتبار ، والتدبر ، والاستقراء ، والحوار ، والمشاهدة) فإن يحافظ على أن يكون إيمانًا قائمًا على حرية الاختيار ، وأن يتميز بالتسامح وسعة الصدر ﴿ لا اكراه فى الدين ﴾[١٠] ﴿ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا ﴾[١١] .

لكن المسلمين منذ مطلع تاريخهم ما لبثوا أن تفرقوا شيعًا وأحزابا . وبدلًا من أن يقوم بينهم حوار العقل والمنطق ، أو تسود خلافاتهم روح التسامح والأخوة ، اندفع كل حزب منهم فى طريق التعصب المغلق . وكانت النتيجة اشتعال الحروب بينهم ، وتأصل العداوة فى نفوسهم . وإذا كان صحيحًا أن « الدم يستتبع الدم » فقد توارثت الأجيال أحقاد الآباء والأجداد . وهى تلك الأحقاد التى راحت تظهر فى كل عصر تبعًا لوسائل الإثارة والقدرة ، أو تختفى موقتًا تحت سلطان السيطرة والإبادة .

وهناك وجوه كثيرة للتعصب ، يهمنا منها الآن التعصب المذهبى . وهو الذى برز فى تاريخ المسلمين بين أهل السنة من جانب وبين كل من الشيعة والخوارج من جانب آخر ، وبين الأشاعرة والمعتزلة والماتريدية ، وبين الصوفية والفقهاء .. وقد أدى هذا التعصب – كما نعلم – إلى انغلاق كل طائفة على ما لديها دون محاولة فهم وجهة نظر الطائفة الأخرى . وإنما كل ما هنالك مجرد اتهامات ، وإدانات ، واستعداء السلطة أحيانًا لاسكات الطرف الآخر ، أو التنكيل به إذا تهيّأت الظروف لذلك (تأمّل هنا موقف المعتزلة ضد خصومهم فى عهد الخليفة المأمون) . ولا نود أن نسترسل هنا فى أنواع التعصب الأخرى داخل كل طائفة ، كما حدث لدى الشيعة ، أو لدى الفقهاء عندما انقسموا إلى عدة مذاهب ، وانغلق مقلدو كل مذهب على مذهبهم ، مما أدى بهم أحيانًا إلى التصارع والمحاربة (يروى المقدسى أنه شاهد بنفسه فى بخارى قتال الأحناف والشافعية يدور فى شوارع المدينة ، كما أنه فوجىء بوجود امامين منهما فى المسجد يؤمّ كل واحد أتباع مذهبه فى ناحية)[١٢] .

إن المتعصب لمبدأ ما يعطى لنفسه حقوقًا فى نفس الوقت الذى يحرم منها الآخرين ، بل إنه يسعى لفرض آرائه عليهم ، ومحاربتهم دونها إن استطاع ذلك . وقد كان الرمى بألفاظ (الكفر) و (الفسق) و (البدعة) و (الزندقة) فضلا عن (الجهل) و (الغباء) و (الضلال) دائمًا هو أسلوب المتعصبين بعضهم ضد البعض الآخر ، مع أن القرآن الكريم

(١٠) سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

(١١) سورة الإسراء ، آية ١٧ .

(١٢) انظر : المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٣٦ ط ثانية ليدن ١٩٠٦ .

أوصى المسلمين جميعًا بألا يتنابزوا بالألقاب ، يقول تعالى : ﴿ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾(١٣) ومنع الرسول ﷺ أن يسم المسلم أخاه بأنه كافر ، وإلَّا بَاءَ بهذا الوصف أحدهما .

المشكلة إذن ضاربة بجذورها فى المجتمع الإسلامى منذ عصور قديمة ، وتكاد تكون متصلة عبر تاريخه الطويل . لكن خطورتها فى الوقت الحاضر إنما تتمثل فى وقت اتسعت فيه آفاق المعرفة أمام المسلمين اتساعًا ملحوظا ، وأصبح نزاع المسلمين فيما بينهم وبالًا عليهم ، نظرًا للوضع الحرج الذى يوجدون فيه ، بين أعداء يتربصون بهم الدوائر ، كما أن حرية الرأى والتعبير كادت تكون مكفولة فى معظم بلاد المسلمين . ويمكن القول إن أحدًا لا يمكن أن يدّعى – حاليا – أنه ممنوع من إبداء رأيه ، فإنه لو مُنع فى ظل نظام سياسى معين ، بإمكانه أن يعلنه فى مكان آخر . وهكذا فإن مسببات التعصب لم تعد متوافرة . والعصر الذى نعيش فيه قادر على استيعاب الكثير من الأفكار دون أن يحدث بالضرورة تصادم بين أصحابها . المطلوب فقط أن يتم بينهم حوّار بناء ، وأن تجرى مناقشة الآراء على أسس ثابتة ، وأن تحدد الأهداف منذ البداية بوضوح تام(١٤) .

لكن كيف يبدأ حوار المختلفين فى الرأى ؟ وكيف تجرى المناقشات؟ وكيف تحدد الأهداف ؟ ومتى يتنازل صاحب الرأى الضعيف أمام صاحب الرأى القوى ؟ وكيف يمكن الاستفادة من وجهات النظر المختلفة ؟ وبأى أسلوب يصبح اختلاف الأفكار طريقًا إلى إثراء الموضوع ؟ كل هذه الأسئلة – فى رأينا – من صميم عمل الفلسفة الإسلامية ، وما تشتمل عليه من مناهج للبحث وآداب المناظرة ، وما تتحلّى به من روح التسامح وسعة الأفق .

ثالثا : مشكلة التخلف الحضارى :

لم تبرز هذه المشكلة تاريخيًا إلا عند اتصال المسلمين بالحضارة الغربية ، وذلك فى أعقاب حركة الاستعمار الغربى الذى بدأت مقدماته مع حملة بونابرت على مصر والشام (١٧٩٨ – ١٨٠١ م) واستمر يتوغّل فى سائر المجتمعات الإسلامية حتى منتصف القرن العشرين . ومن المعروف أن اتصال المسلمين بالغرب الأوربى قد أحدث فيهم آثارًا بعيدة المدى ، ومن أهمها : احساسهم الحاد بمدى تخلفهم الطويل ، خلال قرون متعددة ، مرّت عليهم دون أن يأخذوا فيها بوسائل التقدم المادى ، ولا حتى بأسباب التطور الفكرى والثقافى ، ثم

---

(١٣) سورة الحجرات ، آية ١١ .

(١٤) يمكن أن يعاد النظر فى مؤلفات آداب الجدل والمناظرة لاستخراج ما يمكن أن يساعد على بناء شكل الحوار بين المختلفين فى العصر الحاضر . انظر كتابنا مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية ص ١٧٤ . القاهرة ١٩٨٥ ، وكتاب د. طه جابر العلوانى : أدب الاختلاف . من مطبوعات المعهد العالمى للفكر الإسلامى .

فجأة .. وجدوا أنفسهم ، وقد تجاوزهم الركب ، بل صاروا أشبه بالفريسة التى تتناوشها الذئاب من كل جانب !

لكن الذى جرى فى مصر – وهى من أكبر ولايات الدولة العثمانية حينئذ – كان مبشرًا بالخير . فقد قرر الشعب المصرى ، لأول مرة فى التاريخ ، اختيار حاكمه بنفسه ، وأجبر السلطان فى تركيا على المصادقة . وقد يقال عن محمد على (ت ١٨٤٨ م) إنه كان مغامرًا ، ويسعى إلى بناء امبراطورية مستقلة به ، وأسرة مالكة تتوارث العرش من بعده .. ولكن مجموع الاصلاحات التى قام بها هى ما يكوّن الاساس الحقيقى لبناء مصر الحديثة : فقد اهتم بتنظيم الزراعة ، وأقام القناطر الخيرية لتتحكم فى رى الدلتا ، وبنى جيشًا قويا ، واسطولًا حديثا ، وأرسل البعثات التعليمية إلى أوربا للاستفادة من تقدّمها فى المجالات المطلوبة لمشروعه الكبير ، كما استقدم المستشارين الأجانب ، واستفاد من خبراتهم ، وأتاح لعدد من أبناء مصر أن يتولوا بعض المناصب الهامة ، فكان لهم أثرهم الواضح فى مجالات عديدة ، ومن أهمها المجال الثقافى .

وهنا يستوقفنا شخصان كان لهما دور ثقافى بارز ، وهما رفاعة الطهطاوى (ت ١٨٧٣) وعلى مبارك (ت ١٨٩٣) . فعلى أيديهم تم تنظيم التعليم الأساسى وازدهرت حركة الترجمة ، وبدأت الصحافة أولى خطواتها الجادة .. ومع ذلك كله ، ظهرت روح جديدة فى أبناء الشعب ، وارتفع بالتدريج صوت الاصلاح ، وبرزت ضرورة الأخذ بوسائل النهضة ، واللحاق بمدنية العالم المتقدم[١٥] .

لقد كان يمكن لهذه التجربة ، التى تمت على أرض مصر ، أن تكون مشروعًا اسلاميا عاما ، ينتقل بالتدريج إلى سائر البلاد الإسلامية الأخرى . ولكن الدولة العثمانية لم تتحْ الفرصة اللازمة لذلك ، كما أن حركة المد الاستعمارى الغربى كانت على أشدها فما لبثت البلاد الإسلامية ، وفى مقدمتها البلاد العربية ، أن خرجت من السيطرة العثمانية التقليدية لتقع فى براثن الاستعمار الغربى .

وهنا بدأت صفحة أخرى من تاريخ المسلمين فى العصر الحديث . فقد نهضوا لمحاربة الاستعمار الغربى ، واستغرق كفاحهم فى هذا الطريق عمرًا طويلًا ، كان من الممكن أن ينفقوه فى عملية البناء ، وملاحقة التقدم . لكن ما حدث حدث . ولم يكد المسلمون فى عشرات السنوات الأخيرة يخلصون أنفسهم من قيود الاستعمار الغربى (وخاصة العسكرى)

---

(١٥) انظر مقالنا : الترجمة ودورها فى الفكر العربى . دراسات عربية واسلامية ، الجزء الثامن .

حتى وجدوا أن الركب قد تجاوزهم أكثر مما مضى ، واتسعت المسافة أطول مما كانت .. ولكنهم ظلوا يحاولون ، فيصيبون حينا ، ويخطئون فى أحيان كثيرة . والذى ينبغى تسجيله بأمانة أن المحاولة مستمرة . ونقصد بالمحاولة : روح الإصرار على ملاحقة التقدم ، وتعويض قرون التخلف الماضية .

ولمحاولة تعويض التخلف الحضارى لدى المسلمين وجوه متعددة : بعض هذه الوجوه ينزع إلى ما أصبح يُطلق عليه مصطلح « التغريب » أى إعادة تشكيل المجتمع الإسلامى على نسق المجتمع الغربى ، انطلاقًا من أن التقدم ليس له إلا شكل واحد ، يتمثل فى النموذج الغربى (الأوربى – الأمريكى) . وبعضها الأخر يرى فى « التجربة الاشتراكية » دليلًا هاديا له ، وقد ساعد على بروز هذا الاتجاه بين المسلمين ما لمسوه من استمرار عداء الغرب لهم ، وعدم مساهمته فى تقديم المساعدة لهم بعد أن استنفد مواردهم خلال فترة الاستعمار السابقة . أما الاتجاه الثالث ، فيتمثل فى العودة إلى الأصول الإسلامية – بدرجات متفاوته فى الفهم والتفسير – لتأكيد أصالة المسلمين ، وشق مسار خاص بهم فى عالم اليوم ، تمامًا كما حدث فى التاريخ القديم ، عندما استطاع أجدادهم بناء حضارة ذات طابع اسلامى متميز[١٦] .

ومن الملاحظ أن هذه الوجوه الثلاثة لمواجهة مشكلة التخلف الحضارى تتواجد فى وقت واحد ، ولكل منها أنصارها وأعلامها .. وهنا يبرز دور الفلسفة الإسلامية فى اختبار مدى صحة هذه الوجوه ، وتحديد ما بها من عناصر إيجابية وسلبية ، وبيان الإشكاليات التى تترتب على كلٍّ منها نظريًا ، وعند التطبيق .

رابعًا : مشكلة التبعية :

أدّى طول بقاء الاستعمار الغربى فى بلاد المسلمين (حوالى ١٥٠ سنة) إلى انتقال – وليس فقط تسرب – الكثير من العادات ، والقيم ، والأفكار ، والمودات أيضا إلى المجتمع الإسلامى ، حتى اكتسبت مع مرور الوقت نوعًا من القبول ، وأصبحت مع التغاضى والنسيان جزءًا أساسيًا من تكوينه : حدث هذا بدايةً فى الطبقات العليا من المجتمع ، ثم انعكس بالتدريج على الطبقات الوسطى والدنيا .. وهكذا يمكن القول بأن المجتمع كله لم ينج من التأثير الغربى الساحق عليه .

لكننا لابد أن نتوقف هنا لنبرز فكرة نحسبها هامة ، وهى أن حياة المسلمين – عندما تعرضت للتأثير الغربى فى مطلع القرن التاسع عشر – لم تكن هى الحياة الإسلامية النموذجية ،

(١٦) تشمل هذه الاتجاهات الثلاثة تقريبا كل ما يجرى على الساحة العربية والإسلامية فى مجال النهضة الحديثة . ولا شك أن تحتها تفريعات كثيرة ، ولكنها فى نهاية الأمر تعود كلها إلى واحد من هذه الاتجاهات المذكورة . يراجع فى هذا الصدد كتابىْ أ.د. يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة ، الحل الإسلامى ، وهما من مطبوعات مكتبة وهبة بالقاهرة .

التى جاء الغرب فأفسد نظامها ، أو عكر صفاءها ، لأننا نعلم جيدا أن المسلمين قد انحرفوا عبر قرون طويلة عن النموذج الإسلامى الصحيح ، إلى حد أن اختلطت بعقيدتهم ذاتها الكثير من الخرافات الشعبية ، وسيطر على تفكيرهم اتجاه غيبى يمجد التواكل ، ويعتمد على التوسل بالأولياء بدلًا من الأخذ بأسباب العمل (ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت ١٧٩١ م) التى قادها ضد مظاهر الشرك والوثنية فى شبه الجزيرة العربية نفسها ، قبل أن يظهر الاحتكاك المباشر بين المسلمين فى تلك المنطقة وبين الحضارة الغربية الوافدة)[١٧] .

وقد أدرك المسلمون ببصيرتهم العملية أن الحضارة الغربية تحمل الكثير مما يسهّل عليهم مشقة الحياة ، وينظم لهم أمور المعيشة ، فلم يجدو حرجًا على الإطلاق من سرعة اقتباسها ، وإحلالها محل الوسائل والأدوات والانظمة التى كان يستعملونها ، والتى أثبت لهم الزمن أنها لم تعد صالحة لمسايرة العصر الحديث . ومن الأمثلة على ذلك : وسائل المواصلات والاتصالات ، والتنظيم الادارى للدولة ، والنظام المالى وما يشتمل عليه من تحديد الموارد والمصروفات ، ونظام التعليم ، ووسيلة الصحافة .. هذا فضلًا عن الموضوع الأساسى فى التقدم وهو نقل المستحدثات فى مجال الأسلحة لتكوين القدرة العسكرية الخاصة بهم .

لكن « الأشياء » المنقولة من الحضارة الحديثة لم تدخل وحدها ، فقد سبقها وصحبها وتبعها حشدٌ هائل من الأفكار ، ولم يكن فى الإمكان حينئذ التمييز بين ما هو حقيقى وما هو زائف . والذى حدث أن بعض الكتّاب كانوا مهيّأين لاستقبال هذه الأفكار ، والانفعال بها ، ثم الدعوة إليها وترويجها . وحسبنا أن نشير فى هذا الصدد إلى أفكار مثل (الديمقراطية – تحرير المرأة – العلمانية – التطور – السامية – القومية – الدعوة إلى العامية .. الخ) وقد انتشرت هذه الأفكار فى نفس الوقت الذى كان المجتمع الإسلامى يتقبل باستمرار « الاشياء » الحديثة ، فغلب عليه أن هذه مرتبطة بتلك ، وأن رفض الأفكار يعنى رفض الأشياء . وبما أن الأشياء مفيدة ، فلابد – أو على الأقل : من الممكن – أن تكون هذه الأفكار أيضا مفيدة .

إن جزءًا كبيرًا جدًا من الحياة الثقافية فى العالم الإسلامى يمكن أن يرتدّ بسهولة إلى الثقافة الغربية . وتأثير هذه الثقافة الأخيرة لا يتوقف على المقولات والقضايا وحدها ، بل على المنهج والاتجاه ، فضلا عن الأسلوب واللغة . ومن يريد أن يتبيّن ذلك يمكنه أن يقرأ – من هذه الزاوية التى نتحدث عنها – كتّابًا مثل أحمد لطفى السيد ، أو سلامة موسى ، أو طه حسين .. ومن المؤكد أننا نعترف لكل من هؤلاء بأصالته الخاصة ، وشخصيته المحددة ،

---

(١٧) انظر : أحمد أمين ، زعماء الاصلاح . الفصل الخاص بالشيخ محمد بن عبد الوهاب . وكذلك كلمة ISLAH فى دائرة المعارف الإسلامية ط . ثانية .

ولكننا نركز فى هذا المجال على مدى التأثير الغربى الذى تعرّض له ، وبرز فى أعماله ، سواء من حيث الفكر ، أو المنهج أو الأسلوب .

لكن المشكلة تتفاقم كلما زاد مستوى الاستمداد من الثقافة الغربية فى الوقت الذى يقل فيه – أو ربما يتلاشى – مستوى الاستمداد من الثقافة الإسلامية . والمصطلح الذى يوضح هذا الموقف يمكن أن نستعيره من علم الاقتصاد وهو « زيادة الواردات عن الصادرات » .. هنا تكاد تغيب الملامح الشخصية للثقافة الإسلامية ، ويفقد المثقفون المسلمون هويتهم الذاتية ، بحيث يتحول إلى مقدساتٍ : كل ما هو غربى حتى على مستوى اللغة والتعبير ، ويتوارى فى الظل كل ما هو إسلامى حتى ولو كان عميق المضمون ، أو ذا قيمة حقيقية .

ماذا فى الثقافة الغربية بإمكانه أن يفيد فعلًا الثقافة الإسلامية ؟ لا شك أن هناك عناصر كثيرة بعضها مهم ، وبعضها أكثر أهمية ، ولكن هناك عناصر أخرى لا قيمة لها على الإطلاق بالنسبة إلى الثقافة الإسلامية . لكن كيف نحدد ذلك ؟ وكيف نختار ؟ وكيف يمكن توظيف ما نختاره ؟ وعلى أى مقياس يتم استبعاد ما لا قيمة له ؟ .. هنا أيضا مجال واسع أمام الفلسفة الإسلامية .

خامسًا : مشكلة الأصالة والمعاصرة :

تعتبر هذه المشكلة من أحداث المشكلات التى أخذت تستحوذ على اهتمام المثقفين المسلمين فى الآونة الأخيرة ، وترجع جذورها إلى المرحلة التالية لفترة النهضة الحديثة . أما جوهر المشكلة فيتمثل فى كيفية التعايش – أو الامتزاج – بين التراث الإسلامى ، والثقافة الحديثة (الغربية) .

وفى رأينا أن هذه المشكلة تحتوى على إشكال حقيقى بالفعل ، كما أنها تشتمل أيضا على وجه زائف ومفتعل .

أما الإشكال الحقيقى فيتمثل فى أن التراث الإسلامى يقوم على عدد من الثوابت المستمدة من الوحى الإلهى . وهذه الثوابت لا مساومة على الاطلاق فى التخلى عنها بالنسبة للمسلمين ، لأنها هى التى تكون أساس عقيدتهم الدينية التى مازالت مستمرة حتى اليوم . أما الثقافة الغربية وما تشتمل عليه من فلسفات وضعية ، واتجاهات مادية ، وقيم عملية فإنها تسعى إلى أن تتعامل مع هذه الثوابت بنفس تعاملها مع المتغيرات التى كانت موجودة فى أوربا على عصر النهضة .. وهنا المأزق الذى ينبغى أن يتخلص منه المثقفون المسلمون . ولن يتم

ذلك إلا بمعونة الفلسفة الإسلامية التى يمكنها أن تقيم التوافق – مرة أخرى – بين الدين والعلم ، أو بين الشريعة والحكمة .

لكن التراث الإسلامى يحتوى أيضا على الكثير من المتغيرات . ونقصد بها : أنظار المسلمين أو فهمهم للمصادر الإسلامية الأولى (القرآن والسنة) الذى اتسع ، وتنوع ، وتطور بتطور العصور ، واختلاف الأماكن ، ونوعية الثقافات .. الخ . وهنا ينفتح مجال واسع لإعادة القراءة ، والتفسير ، والحكم .. وتمتد الثقافة الإسلامية المعاصرة لتجد ما يدعمها فى ماضيها الطويل ، كما يمكنها أن تستفيد بما تقدمه لها الثقافة المعاصرة (الغربية) من معطيات ومناهج أقدر على التحليل والتفسير والإقناع . وهكذا فإن متغيرات التراث الإسلامى لا تمثل أى مشكلة بالنسبة لصراع الأصالة والمعاصرة . وهذا ما جعلنا نقول فى البداية إن هذه المشكلة تحتوى على وجه زائف ومفتعل .

ولعل هذا يقودنا إلى أن تعايش الثقافيتين : الإسلامية والمعاصرة ليس مستحيلا إذا أحسن فهمهما وتمّ استيعابهما جيدا ، وإنما المشكلة تتمثل بالأحرى فى نوعية المثقفين بكل منهما . فأنصار الثقافة المعاصرة (الغربية) لا يكادون يحسنون فهم الثقافة الإسلامية القديمة ، وغالبًا ما يصدرون عليها أحكامهم أنطلاقًا من مفاهيم الثقافة الغربية ، بل ويستخدمون لغتها حيث لا مجال لهذا الاستخدام على الاطلاق (لاحظ مثلًا عندما يطلق البعض مصطلح « العصور الوسطى » على نفس الفترة من تاريخ المسلمين !) .

وفى الجانب المقابل ، نجد أنصار الثقافة الإسلامية ، المتمسكين بالتراث ، حريصين على ألا يتجه إليه أى نوع من النقد أو التمحيص ، غافلين بذلك عن أن « كل ما فى التركة لا يستحق التوزيع » وأنه من الواجب علينا أن نتناول التراث على أنه محصّلة مراحل زمنية قد تزداد قيمتها لقربها من المصدر ، كما قد تزداد أيضا بتراكم التجارب الإنسانية مع مرور الزمن . ولتوضيح ذلك نقدم مثالًا واحدا : الحسن البصرى (ت ١١٠ هـ) كان من أفضل علماء المسلمين الذين فهموا الإسلام روحًا ونصًا ، وذلك لقربه من المصدر . وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) هو الآخر من أفضل علماء المسلمين الذين استوعبوا حركة التاريخ الإسلامى بفضل تراكم التجارب الإنسانية التى تجمعت للمسلمين حتى عصره .

وبين هذا النموذج وذاك أفهام كثيرة قد لا تثبت أمام النقد ، أو تكون دعاية لمذهب ، أو دفاعًا عن سياسة .. وهنا لابد من التحفظ ، والاحتياط ، ووضعها فى مكانها الطبيعى من التاريخ .

وهكذا فإن مشكلة الأصالة والمعاصرة لها وجهان . أحدهما حقيقى ، قد أشرنا إليه ، والآخر زائف ومفتعل : وهو ما يبدو لنا فى الأحكام المتسرعة ، والرؤية الناقصة ، وعدم التمكن من فهم التراث ولغته ، بالإضافة أيضا إلى عدم التمكن من فهم الثقافة الغربية ولغتها . والأحساس بالمشكلة أشبه براكب الطائرة ، عندما يجدها تهتز قليلًا فيتوقع سقوطها ، وبين أحساس قائد الطائرة نفسه الذى يدرك اللحظة الحرجة التى تسقط فيها بالفعل .

تعقيب :

تلك هى - فى رأينا - أهم المشكلات التى يمكن للفلسفة الإسلامية أن تتصدى لمواجهتها فى الوقت الحاضر . وهى مشكلات - كما يبدو - حقيقية ، لأنها تنبع من واقع المجتمع الإسلامى الكبير ، وترتبط بمستقبله . لكننا ينبغى أن ننبّه إلى أن الفلسفة الإسلامية لا تملك - دائما - مفاتيح سحرية للحل . وإنما تكمن مهمتها الأساسية فى التنبه للمشكلات ، وتحديدها . وليس تحديد المشكلات - كما قد يظن البعض - بالأمر السهل . فهو يتطلب خبرة عميقة ، وزادًا علميا وثقافيا واسعًا ، وقدرة كبيرة على التحليل والتركيب والمقارنة .

وكذلك ينبغى ألا تجرى مواجهة هذه المشكلات بعيدًا عن الدراسات التاريخية والاجتماعية لأحوال العالم الإسلامى ، وخاصة خلال القرنيْن الأخيرين . فإنه لم يعد من الممكن أن تبدأ الفلسفة من فراغ ، وإنما ينبغى أن يكون وراءها رصيد كاف من الحقائق والمعلومات ، حتى لا تتحوّل فروضها إلى خيالات غير قابلة للتحقيق ، أو تصبح الأراء فيها مجرد انطباعات ذاتية لمفكرين يعيشون بعيدًا عن واقع مجتمعهم الحىّ .

وأخيرًا ، فإن مواجهة هذه المشكلات ينبغى أن يتم فى إطار الرؤية الأوسع لما يجرى فى عالم اليوم . فلم يعد المسلمون - كما كانوا بالأمس - هم أصحاب السيادة المطلقة فى العالم ، كما أنهم لم يعودوا منعزلين عن غيرهم . ومن هذين الجانبين ، على الفلسفة الإسلامية أن تتجنّب « الحل الأوحد » الذى يرى الشىء إما ناصع البياض أو حالك السواد (ولا يوجد وسط بينهما) وإنما يمكنها أن تتيح المجال للحلول البديلة ، والمؤقتة ، وأن تستفيد - فى هذا المجال - من كل ما طرأ على المعرفة الإنسانية من تطور ، وما اكتسبته من مرونة .

بهذه النظرة ، يمكن للفلسفة الإسلامية أن تقوم بدور هام وحقيقى فى مساعدة المسلمين على النهوض والتقدم ، وأن تسجل - فى نفس الوقت - شهادتها على العصر ، بكل ما تتميز به من حيدة ، وسعة أفق .